

رواية

الجنّى

خيرى عبد الجواد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٩

كتابات جديدة

رئيس مجلس الإدارة
أ. د سمير سرحان

رئيس التحرير
إبراهيم عبد المجيد

مدير التحرير
فتحي عبد الله

سكرتير التحرير
أيمن حمدى

الإشراف الفنى
صبرى عبد الواحد

مستشارو التحرير
أ. د أحمد درويش
أ. د صلاح فضل
أ. يوسف القعيد

مـــــــدخل

كنت أجلس واضعاً ساقاً فوق أخرى، وأمامى، وضعت علبة السجائر والولاعة، وكان طفلى الذى لم يكمل بعد شهره الخامس، يجلس فى مواجهتى على الكنبة بعد أن وضعت حوله مساند تجعل وضعه مستقراً. كان ينظر إلىّ ويضحك ضحكة مبهمة، ماكرة، وكثيراً ما كنت أسأل نفسى: كيف لطفل ابن خمسة شهور أن يكون ماكراً وذا دهاء؟ هذا بالضبط ما كانت تنبئ به عيناه بالتماعهما الغريب كلما نظرت إليه، المهم، أخذت علبة سجائرى وسحبت منها واحدة أشعلتها ووضعت العلبة مكانها، وهممت بأخذ النفس الأول، حين مد طفلى يده إلى العلبة التى تبعد عنه مسافة كبيرة، لكنى بعينىّ هاتين رأيت ذراعه تستطيل، ورأيته يقبض بكفه على العلبة والولاعة دفعة واحدة، وبأصبع مدربة، أخرج واحدة وضعها بين شفتيه وأشعلها، ثم إنه نظر إلىّ من تحت لتحت نظرة متحدية، وأخذ نفساً واحداً طويلاً متواصلاً توهجت على أثره السيجارة وأحدثت شرراً وهى تطقطق قبل أن تتحول إلى رماد. نظرت إليه مذهولاً وقد فتحت فمى من شدة دهشتى دون أن أنطق، وفى اللحظة التالية أطلق نفسه فخرج من فتحتى أنفه وفمه دخان كثيف

أخذ يتلوى كثعبان فى سماء الحجرة وابتلعنى داخله، وشعرت باختناق، وسمعت ضحكة مجلجلة أعقبها صهيل وعواء ومواء ونهيق، تداخلت الأصوات حتى خرجت صوتًا واحداً يحمل كل الأصوات آتيًا من ناحيته، فنظرت إليه، وحين رآنى أنظر إليه، أخرج لى لسانه ونتره فى الهواء فأحدث فرقعة بوميض، وبدأ لسانه يلتف حول رقبتى، أخذت أسعل وبدأ هو يضغط بشدة على رقبتى فتدلى لسانى وجحظت عيناى وكدت أفارق الحياة لولا أننى تشبثت بآخر ما تبقى لى من نفس، أمسكت باللسان الملفوف حول رقبتى بيد لأخفف قليلًا من ضغطه، وباليد الأخرى شددت الجزء الملتصق بفمه شدة رجل ميت، وكم كانت دهشتى حين انخلع فى يدى رخواً طريًا وأخذ اللسان الحلزونى ينكمش ويتضاءل حتى عاد إلى وضعه الطبيعى، لسان طفل لم يتجاوز شهوره الخمس بعد، ورأيته يبكى، وعيناه أخذتا تنظران إلىّ بتوسل، بينما ملامحه أخذت تتشكل بصورته كما أعرفها، اقتربت منه ببطء وحذر ولسانه فى كفى، مؤخرته تقطر دماءً، بينما الفم الصغير المفتوح غارق فى دمائه ويتقلص ألماً. مددت يدى باللسان وأنا أضبطه، جعلت قاعدته فى داخل الحلق، أما طرفه المدبب، فقد ثبته بين سقفى الحلق جيداً، ولما انتهيت، جلست فى مواجهته لاهثاً مجهداً، حتى اذا ما هدأت قليلاً، أشعلت سيجارة، وبينما آخذ نفساً وأتأمل ملامحه، نظر إلىّ وابتسم وقال لى: إغ. وذراعاه الصغيران تدعوانى لحمله، وفى لحظة، كان غائباً فى حضنى.

يمكننى تلخيص كل ما حدث فى عبارة بلاغية أكثر تركيزاً: «لقد بدأ الجنى يعلن عن نفسه، وهذه مناورته الأولى».

لأن ما حدث بعد ذلك أعجب.

كان الوقت مساء الخميس، وكان التليفزيون يعرض فيلم السهرة «بين الأطلال»، وهذا الفيلم تحديداً أحفظه، ولكنى جلست أتابع باهتمام المؤلف الشهير الجالس على الشاطئ يكتب روايته الجديدة، بينما فتيات العجمى الجميلات يتحلقن من بعيد يتفرجن عليه ويتأملن انهماكه فى التأليف، وكل منهن تتمنى الفوز بنظرة منه، وهو غير ملق بألا لكل من حوله. كنت أحب هذه اللقطة، فقد شكلت فى خيالى حكايات ومغامرات عن عالم الكتابة والكتاب، فأن تكون مؤلفًا مشهوراً وسيمًا وغنيًا، لا تفعل شيئًا فى دنياك سوى أن تجلس على شاطئ العجمى، البحر أمامك، والنساء يرتدين البكينى حولك يتهامسن عنك، بينما أنت تكتب، تلك هى الحياة كما كنت أريدها، وكم تمنيت أن أكون مؤلفاً مشهوراً لا لشيء إلا أن أكون مثل بطل هذا الفيلم، فقد تتكرر معى المشاهد بعينها وأجد نفسى محاطاً بكل هذا الجمال الأرستقراطى الرفيع، وكثيراً ما فكرت فى لقطة أخرى نغصت علىّ حياتى فترة طويلة: أن تجلس على شاطئ ما هائمًا ومندمجًا فى لحظة غروبية خالصة لك وحدك، والشاطئ ليس به صريخ ابن يومين، وقرص الشمس الأحمر الدامى يلون السماء والماء بلون الغسق، وفجأة، تمر أمامك فتاة ترتدى البكينى متجهة إلى الماء، طويلة، ممشوقة القوام، بيضاء ملفوفة ذات جمال أخاذ، تأخذك من تأملاتك فى شمسك الغائبة، تمر دقائق وتراها تغرق وتصرخ تستغيث بك، ولا ينقذها سواك، وبعد إفاقتها تتجاذبا أطراف الحديث، وتعرف أنها تحب القراءة، وأنها مفتونة بكاتب بعينه، وأنها تحفظ كل أعماله، وليس لها هدف فى الحياة سوى رؤيته والتعرف

عليـه، وتكون مـفـاجـأتك لهـا أن هذا الكاتب هو أنت دون خلق الله أجمعين، يا حلاوة.

إيبيه، ما علينا، المهم أننى غمزت لزوجتى بطرف عينى وأشرت إلى الولد الذى أخذ يتسحب هنا وهناك محدثاً جلبة، وهمست لها: حاولى أن تنيميه. فما كان منها إلا أن حملته وضمته إلى صدرها وهى تهدهده وتغنى له. وظلت على هذه الحال مدة، هل نام؟ كنت أظن ذلك حين لمحت إغماضة عينيه وصوت نفسه المنتظم، فأشرت لها أن تضعه فى السرير الوحيد الذى نملكه، فوضعته ووقفت تتزين أمام المرآة، ثم إنها اندست فى الفراش بجانبى. وكنت أهم بمداعبتها حين لمحته فى ظلام الحجرة، عيناه كانتا تنظران لى، بينما بريقهما أرعبنى، تسمرت دون حركة، وظنت هى أن شيئاً قد حدث لى فقالت مالك. أشرت هامسًا: انظرى. ولما نظرت ولمحت عيناه نفخت فى الهواء قائلة: ابنك خلفة قرود، شيطان فى صورة طفل. وفى محاولتها لإنامته مرة أخرى، اذا به ينتصب جالسًا فجأة ويتخطى أمه ويندس بيننا، سحبت الغطاء فوق رأسى معطياً لهما ظهرى وأنا أنفخ من الغيظ، وعلى الفور بدأت أنصرف بذهنى إلى هناك، حيث كل النساء جميلات، وحيث كل شيء مباح بمجرد استدعائه وتخيله، فأخذت فى تجميع أشلاء امرأة ليس كمثلها امرأة على ظهر الأرض، وقد اخترت من كل واحدة أحسن ما فيها، وكنت أهم بمداعبتها حين حدث الآتى: أظلمت شاشة ذهنى فجأة، وتوقف كل تفكيرى، وسمعت صوتاً آتياً من بعيد هامساً واضحاً: عيب يا بابا. كان صوته، ولمحت عينيه تنظران

نحوى بتحد وهما تلتمعان وسط الظلام، بينما أمسك فى إحدى يديه مقصًا كبيراً يقطر دمًا، فى يده الأخرى لمحت قطعة من الأحبال الدقيقة ملتفة حول نفسها وملوثة بالدماء، أشار إلى ما فى يده قائلاً: كل أحلامك فى يدى الآن، عيب يا بابا ما كنت تَهَم بفعله.

قمت مفزوعًا ـ أكاد أبكى من شدة الغيظ، تلفت أبحث عنه، كان نائمًا بجوارى يغط فى نومه، تعجبت وناديت على زوجتى، كانت هى أيضًا غارقة فى النوم، سحبت الغطاء وتأهبت للنوم مرة أخرى، حين صحت هى فجأة وأخذت تتلفت حولها، بينما صدرها يعلو ويهبط انفعالاً، وبعد أن هدأت قليلاً قالت: غريبة. قلت ما هو الغريب. حلمت حلماً عجيباً. قلت لأجعلها تكمل: اللهم اجعله خيراً. أشارت إليه وقالت: كنت أحلم حين انقطع الحلم فجأة وسمعت من يقول لى: عيب يا ماما. كان صوته، لكنى لم أره، وكنا ننام، لمّا نظرنا إليه فلمحنا ابتسامة ماكرة تعلو وجهه النائم.

يمكن شرح العبارة الآن:

سأسميها اللعب مع الجنى، أمارسها أنا وهو، أكونه فى لحظات، ويكوننى فى أخرى، نتبادل أدوارنا ونلعبها سويًا: أنت أنا، وأنا أنت. من الجنى، أنا، يعنى أنت. أنا أنت، وأنت أنا، من الجنى، أنت، يعنى أنا. أنت أنا، وأنا أنت، من الجنى؟!

* * *

١

حين قامت الحرب بيننا، نحن أبناء حارة على أبوحمد، وبين شارع عشرة الكبير، بعياله الذين يبان الواحد منهم مثل الفلق، لم يكن يستطيع أحدنا التنبوء بالنتيجة النهائية، ومن الذى سوف يكسب فى النهاية. لكنها بدأت، وما كان علينا إلا أن نحارب مهما كانت الخسائر، ومهما كانت النتيجة.

هكذا بدأت صباح يوم أحد، شمسه طالعة وهواؤه وفير، لماّ كنت أطير طائرتى «النجمة» من شارع عشرة، ولم تكن رائحة الحرب التى سوف تقوم، منتشرة فى الجو، فقد كان صافيًا، وطائرتى تقف ساكنة فى الهواء، مقتربة من مواقع النجوم، حتى إننى خفت أن تصطدم بالشمس. وكنت أغمزها يميناً فتميل، وأغمزها شمالاً فتميل، وأتمايل

فرحاً وذيلها يتمايل مع الهواء وجناحاها يهفهفان، تركت كل الخيط فعلت حتى لامست الشمس، لحظتها، فاجأنى خاطر نفذته على الفور، بعثت للشمس خطاباً مررته من الخيط حتى وصل الميزان فتمايلت، وشممت رائحة الحرب، فقد لمحت طائرة الولد جالون تطير فوق سمائى، ولمحتها تقترب من طائرتى، ورأيته يغمزها فتميل نحوى. لم يكن أمامى سوى أن ألملم خيطى بأقصى سرعة، وكان هذا مستحيلاً لأسباب، منها أن الخيط سوف يلتف على بعضه ويتشابك، ومنها أن الخطاب الذى بعثته للشمس فما ردت، كان يعوق حركة اللم لالتفافه حول الميزان، ومنها أيضاً أن الخيط كان مشدوداً جداً فخفت أن ينقطع فتقع الطائرة. على هذا الأساس تم اتخاذ قرار سريع وحاسم.

قلت: سوف أقوم بعمل مناورات، قد تفلح وتبعد طائرة الولد جالون عن طائرتى.

وقلت: لو اصطاد جالون طائرتى، فسوف أقتله هو وشارع عشرة كله.

وبدأت على الفور فى المناورة.

أخذ يغمز فيقترب، وأخذت أغمز فأبتعد، وكان العيال قد تنبهوا للصراع الدائر بين الطائرتين فوقفوا فوق الأسطح يتفرجون، ولمحت عيال شارع عشرة يقفون جنب جالون يهتفون: ارم يا جالون، ارم عليه. وهتف عيال شارعنا: حاسب يا جمال. سيب الخيط يا جمال، هيصطادك يا چيمى، استمرت المناورة عشر دقائق كان الجميع خلالها يهتفون: صيده يا جمال، صيده يا جالون.

مهارتى الشديدة فى المناورة يعرفها العيال، لكنهم يعرفون أيضاً أن خيطى ضعيف، وأن طائرتى صغيرة عملتها بعد طفح الدم لما بعت كتب المدرسة لحسن العّلاف فى «المسامحة» وأن طائرة الولد جالون معمولة من «الأزّاز» وأن بها موس حلاقة أسفل الذيل. وكان هذا هو ما يخيفنى فى الحقيقة، فلو أن ذيل طائرته جاء على خيطى، فسوف ينحله ويقطعه. وهو ما حدث بالفعل فى المرة الأخيرة، لمّا خرجت عن مدار طائرته بأعجوبة هتف لها العيال وأخذوا يصفرون ويصفقون، وكنت قد تعبت حين أعاد المحاولة فاقتربت طائرته جداًحتى أصبحت فوق طائرتى تماماً، أخذ يغمزها يميناًوشمالاً فيحتك الذيل بالخيط وينحله، اضطربت طائرتى وتشقلبت فى الهواء، انقلبت على نفسى ثم عليه، ثم إنه بحركة بارعة تعجب لها العيال صادنى فاشتبكت الطائرتان ببعضهما، كان علينا أن نلم خيطينا بسرعة رهيبة، كنت أعلم أن نتيجة المعركة سوف تحدد الآن، فالأسرع هو الفائز، أخذ يشد، وأنا أشد، انقطع خيطى فسحب الطائرتين ناحيته، وعيال شارع عشرة ينطون ويضحكون، وعيال شارعنا نزلوا إلى شارعنا وتجمعوا.

فعلمت أن المعركة سوف تبدأ الآن

عند نزولى الشارع كانوا واقفين، ولما لمحونى تجمعوا حولى.

قال سعيد فرجانى: لابد وأن نؤدبهم ولاد الكلب.

وقال شعبان: حرمونا أن نطير طيارة.

وقال محمد : دائماً يصطادون طائراتنا.

وقلت : يجب قتل جالون بأية طريقة.

عند هذا الحد، انفض مجلس الحرب وتفرقنا إلى بيوتنا، لبس كل منا حذاءه الكاوتش حتى نعرف نجرى، وأخذ كل منا نبلته المعمولة من جلد الخناذير التى رأيناها فى عزبة الزبالين، ولما تجمعنا مرة أخرى، أخذنا فى لم الزلط الصغير حتى ملأنا جيوبنا.

حانت ساعة الصفر فانطلقنا وقد ساق كل واحد عجلته الكازوز أمامه، وصلنا خرابة شارعنا المؤدية لشارع عشرة، اختبأنا خلف ساتر الزبالة وانتظرنا. أطل محمد برأسه القلقاسة وقال: أراهم مجتمعين.

وأطل سعيد وقال: جالون واقف يلم الخيط ويضحك ولا على باله.

وأطل شعبان وقال: يعطونا ظهورهم.

وعندما نظرت، رفعت يدى وقلت: اهجموا عليهم. أسرعنا بوضع النبل فى أصابعنا، وقام كل منا بتعمير نبلته، وبدأنا الحرب، نشنت على قفا جالون وقذفت صرخ جالون، وصرخ العيال وجروا، وقذفنا وجروا لكنهم عادوا يتقدمهم جالون، وحين لمحونا، كان الطوب يتساقط علينا من كل الجهات، وجيوبنا خلت من الزلط، فأمسكنا بعض الطوب الصغير، كانوا أسرع، وكان أسرعهم جالون، اقتربوا وابتعدنا بظهورنا، ولم يكن أمامنا سوى الجرى فجرينا، وتركنا عجلات الكازوز الذى تعبنا فى لمه من عند «الكاكولا»، ومن تحت كراسى المقاهى فى شارع همفرس الكبير، جاءت طوبة فى رأسى محمد وشعبان فصرخا وبكيا،

والدم غمر وجهيهما فخفنا وجرينا أسرع، ونظرت ورائى وأنا أجرى، كانوا قد اقتحموا ساتر الزبالة ودخلوا شارعنا وفاجأنى جالون بطوبة أصابتنى فى قصبة رجلى، بكيت لها على الفور.

عند وصولنا حدودنا، كانوا كفوا عن اللحاق بنا لما رأونا ندخل بيوتنا، ثم إننا خرجنا مرة ثانية بعد أن ابتعدوا، ورأينا عجلاتنا الكازوز فى أيديهم فأصبنا بالحسرة.

قلت: لابد من هزيمتهم.

وقلت: لابد من قتلك يا جالون الكلب، وقتل أم حظ، أمك التى تبيع الجاز «الرتل» بخمس تعريفات وكابون، أيضًا سوف نقتل أباك الذى ندخل عنده لنشاهد خيال الظل فيسحرنا ولا نعرف رءوسنا من أرجلنا حتى يسرق ما معنا.

قال شعبان: لم نكن مستعدين للحرب.

وقال مصطفى : هزمونا على أرضنا.

قلت : إننا لم نهزم بعد، وإن علينا أن نشن حربًا جديدة نقتل فيها شارع عشرة كله، وندمر محلاته المعمولة بالزجاج الملون.

قال محمد : ونسرق فيديو الحاج عبده، بل نسرق كل محلاته.

ولكن كيف يتم ذلك؟

لم يتكلم أحد، وكانت رأس محمد تنز دمًا فكبسناها بالطين، وجلست أربط رجلى عند القصبة – كانت تؤلمنى.

واحد فى شارع على أبو حمد، لم يتوقع أن حرباً شاملة على وشك الوقوع، وأن معركة أخذ الثأر يعد لها فى الخفاء، فى سرية كاملة، وكانت توقعاتنا كالتالى:

محمد: قد تشتعل الحرب فى أية لحظة، فور انتهائنا من الاستعداد الجيد لها.

مصطفى: أتوقع أن تنحاز بولاق الدكرور لشارع عشرة، خاصة، إذا هاجمنا السوبر ماركت الذى على أول الشارع، كذلك المقاهى التى يجلس عليها العيال، وعلى هذا الأساس يجب وضع بولاق الدكرور فى حسابات الحزب.

شعبان : علينا تقسيم أنفسنا لعصابات، عصابة تهجم عند أول الشارع، وأخرى من المنتصف عند الخرابة، والثالثة من آخر الشارع، وبذلك نسد عليهم جميع منافذ الهروب.

قلت : علينا البحث فى أمر السلاح، يجب شراء أكبر كمية من البمب والصواريخ الصغيرة والكبيرة، كذلك حرب أطاليا، حتى نشيب ولاد الكلب الجبناء، لما نشوف من الأقوى.

كانت النقود هى ما نحتاجه لشراء أسلحة الحرب، ولم يكن مع أحدنا سوى مصروفه القرشين، اتفقنا على شراء «بلى»، وعلى أن نلاعب عيال الحارات المجاورة. بدأنا نلعب الترنجيلة والمثلث، ولأن مهارتنا عالية جداً فقد ربحنا «بلياً» كثيراً بعناه واشترينا الأسلحة: خمسة بواكى بمب، ٢ باكو شرائط حرب أطاليا، عشرين صاروخاً سريع الاشتعال، علب ورنيش فارغة، وعقدنا مجلس الحرب، وتم تحديد ساعة الهجوم فى السابعة مساء

الخميس لحظة يلعبون حاوريني ياطيطا، وعند بدأ مسلسل سنبل حتى نضمن خلو الشوارع، ونضمن أيضاً عدم تقديم المساعدة من بولاق.

مرت الدقائق بطيئة قبل بدء العد التنازلي، كانت قلوبنا ترجف من لحظة اللقاء، رغم ثقتنا من هزيمة الأعداء هزيمة لا يرفعون في وجوهنا عيناً بعدها أبداً.

حين وصلنا للرقم صفر، انطلقنا، جيوبنا مليئة بعلب الورنيش المعمرة بالبمب وحرب أطاليا، ايدينا تحمل الصواريخ الكبيرة والصغيرة، في الجيب العلوي لكل منا مشط كبريت ماركة الهلب، ولم ننس أن نردد ما ردده «علي» بطل «رد قلبي» حين قال له «سليمان» انت من الضباط الأحرار يا علي. لأن علي يحب مريم فخر الدين. انقسمنا ثلاث فرق، انطلقت كل فرقة لتنفيذ مهمتها. معي مصطفى وسعيد فرجاني وشعبان وأبوالعلا، كل واحد مثل الشحط، عند وصولنا الخرابة، انبطحنا خلف ساتر الزبالة، رأيناهم يلعبون حاوريني يا طيطا، انتظرنا حتى وصلت بقية الفرق أماكنها.

الآن نبدأ تنفيذ العملية

صرخت: خذوا يا جبناء، طوحت وطوح العيال علب الورنيش، ثم اختبأنا خلف ساتر الزبالة، سمعنا صوت الانفجار عالياً، في اللحظة التالية، سمعنا صوت انفجارين وصوت صراخ، أخذنا في إشعال فتيل الصواريخ وطوحنا بها، أضاء الضوء الناتج عن الانفجارات الشارع، رأيناهم يجرون في فزع شديد، خرجنا من خلف الساتر، أشعلنا شرائط حرب أطاليا وجرينا خلف الأعداء رميناها عليهم وجرينا، كانوا هم أيضاً يجرون، وسمعنا صراخاً عالياً وأصوات بكاء، وساد الظلام. فرغ

مـا مـعنا من أسلحـة فبـدأنا نـتـراجع نحـو الخـرابة، رأيتـه يجـرى تجـاهى فعرفـتـه، جالون زعـيم العصـابة، جـريت وجرى ورائى، أخـذنى مقص رجل فوقعت على وجهى ووقع فوقى، ضربنى أسفل رأسى بسيف يده، استدرت له فضربنى على عينى بقبضة يده، كانت ضربته شديدة فصرخت، ظل يلكمنى وكنت أعيط من شدة الألم، فإن يده مثل المرزبة. وعندما قام من فوقى، كانت رأسى تنزف، وعينى اليمين مزغللة، أما عينى الشمال، فما عدت أرى بها فأغلقتها، ثم إنه المفترى، ضربنى بالشلوت وأنا أهم بالجرى وصرخ ورائى: عاملين شطار وشجعان يا ولاد الكلب. التفوا حول محمد ومصطفى وشعبان وبقية الفرقة وعدموهم العافية، وكانوا يصرخون من شدة الضرب، لكنهم وقفوا وجروا ناحية شارعنا، جرينا بأقصى سرعة وجروا وراءنا، فاجأتنى طوبة فى ظهرى فانقطع نفسى لحظتها إلى أن انفجرت باكياً، بكى محمد وهو يعرج، وكان مصطفى يمسك رأسه، أما شعبان فكان يصرخ: كسروا ذراعى. وسمعنا صوتهم وراءنا: إياك نشوف واحد منكم هنا يا ابن المرة منك له. ولما وصلنا حدودنا، جلسنا على أرض الشارع، وبكينا.

فى الصباح، نزلنا الشارع، وفى أجسامنا وعلى وجوهنا آثار المعركة، عقدنا مجلس الحرب، بحثنا فى كيفية شن هجوم سريع وحاسم يكون المعركة الفاصلة، نرد فيها على الفضيحة التى حدثت بالأمس وأصبحنا بسببها معيرة كل الحارات.

وكالعادة، أخذنا فى اعتبارنا جميع التوقعات المحتملة بالنسبة للحرب، ثم أقسمنا نشيد النصر، وبدأنا نعد أسلحة جديدة للمعركة.

* * *



فى لحظة واحدة كانت المعركة قد بدأت، ولم يكن هناك فرصة واحدة للتراجع، ولابد لنا من هزيمة الأعداء شر هزيمة، وإلا أعدمونا العافية ولا نستطيع رفع أعيننا فى وجوه الأبالسة مرة أخرى.

أصل الحكاية أن سعيد فرجانى - تعرفونه طبعًا - لأنه سوف يهدد أباه بالانتحار فيما بعد، ويموت هو وأمه فى ليلة مفترجة، وذلك لأنه رآه يعاكس البنت توحة، وابكى عليه كثيراً لأنه صاحبى الذى مات كافراً.

قال لى وكنا فى المسامحة: تيجى تشتغل معايا، وبالنُّص. فأحضرنا عدة الشغل وهى شنطة ملآنة بأنابيت البوتاجاز الصغيرة، حملتها فوق

كتفى ومشينا حتى وصلنا سور وزارة الزراعة لأن أباه يعمل هناك، وعلى السور، رصصنا عدة الشغل وكتبنا: جمال وسعيد القرص - ملو وتصليح جميع أنواع الولاعات. ثم إننا جلسنا، أنا من ناحية، وهو من ناحية على السور، وأشار بيده إلى الوزارة: أبويا هنا هو الكل فى الكل، دا هو المدير. سوف أرى أباسعيد بعد حين، جالساً على كرسى بجانب باب إحدى الحجرات.

قلت : ياه، المدير. قال: آه، والله. وبينما نحن كذلك، إذ جاء الولد سامبو ابن البرابرة ليملأ ولاعته، ففرحنا لذلك، وكنت قد أحضرت معى كيساً كبيراً من القماش الدمور لنضع فيه الغلة كما يقول سعيد: فأنا ابن سوق وفاهم المسائل أكتر منك. مد الولد سامبو يده بخمسة قروش فضة أخذتها وقبلتها ووضعها على جبينى ثم وضعتها فى الكيس فاختفت. ثم إننى عقدت عليها عقدة وشنيطة، وكانت الدنيا أظلمت حين قال لى سعيد: عملنا بكام النهاردة، دانهارك أرزق باين عليه. مددت يدى إلى جيبى أخرجت كيس الفلوس لأعدها ونتحاسب أنا وشريكى، ولم يكن هناك سوى قروش الولد سامبو الخمس، أخذها سعيد منى وهو ينظر لى نظرة غيظ وشر وجرى ورائى: والنبى باين عليك وشك فقر مدوحس. ثم إنه جرى إلى مقلة اللب فكها وأعطانى خمس تعريفات وقال: والنبى خسارة فيك، جبت لى النحس، منك لله. فاشتريت بقرشين لب من غيظى وركبت بالباقى.

فى اليوم التالى فوجئنا أنا وشريكى بالولد سامبو جاء لملء ولاعته، وجلس بجانب سعيد على السور، وتحدثا لمدة ساعة، ثم انصرف بعد أن أعطانى خمسة صاغ وضعتها فى الكيس.

هكذا بدأت المعركة.

هى بدأت فى اليوم الأول لرؤيتنا للولد سامبو، لأن ما حدث بعد ذلك يدل على هذا - صلوا على النبى:

الولد سامبو فوجئنا به ذات يوم فى حارتنا، وقال لنا: ألعب معكم.

فرحب به شريكى سعيد لأنه تصاحب عليه جداً، وبدأنا نلعب: كلوا بامية.. القطة العامية.. سرقت قميصى.. الإنجليزى.. يا نرجس. ووقع الدور على الولد سامبو، وانضمت إلينا كل الشلة، وكان يمسكنا كلنا، تضايقنا جداً، ماذا نفعل؟ هل نقول له: لا تلعب معنا يا سامبو! عيب. ثم إنه غريب وليس له أصدقاء سوانا، ويجب علينا احترامه. المهم، قلنا نتحمل رذالة الولد سامبو ونشوف، يمكن يحس على دمه ويلمّ نفسه فى أيامه السوداء هذه، ولكن حدث بعد ذلك ما جعلنا نقرر إعلان الحرب عليه وعلى البرابرة كلهم، ناسه.

. مرّ اليوم وراء اليوم، ونحن نذهب إلى عملنا، أنا وشريكى سعيد، أنا ألفع الشنطة على رقبتى حتى أنها اتلوحت، وسعيد يجلس فوق سور وزارة الزراعة يهز ساقيه طوال النهار، ولا نأخذ سوى المشوار الذى يشبه شغل أم قويق - كما تقول أمى، وتقول أيضًا: ياما جاب الغراب لأمه. حتى سامبو هذا لم يعد يأتى، وكان من الطبيعى طبعًا أن أرمى لشريكى شنطته التى مزقت رقبتى فى الشارع وكنا ذاهبين للعمل فى يوم لا ينفع إلا للنوم ولعب البلى، فرجع هو أيضًا، فوجئنا بالولد سامبو فى شارعنا، فرح سعيد به، ولكنى لم أفرح، وبان الغدر فى عينى وعينه، ونظر إلىّ من تحت لتحت بنصف عين، فنظرت إليه أنا أيضًا

الشهادة لله، خفت، سامبو مثل فحل الجاموس السائب، وأنا لا أصل لركبته. ويده ما شاء الله مثل المرزبة. لمّ نفسك يا ولد يا جمال، لوخبطك كف تموت فيها. المهم، طلعت بيتنا وكأنى لم أره، قالت أمى: أجازة النهاردة واللا إيه. وعوجت فمها جهة اليمين قليلاً ثم تركته معوجًا وإلى اليسار وهزت رأسها للناحيتين. أجازة على طول ياختى. قلتها وخرجت وليس فى نيتى شىء، نزلت الشارع، ناديت على العيال فتجمعوا، قلت: نلعب كلوا بامية. مد العيال أيديهم وفردوا أصابعهم وزعقت بالحس العالى: كلوا بامية. حين تكلم سامبو: اقول لكم على لعبة أحسن. أنزلت العيال أيديها، ووقفت واضعًا ذراعاى فى وسطى فاتحاً رجلى فى تحدٍّ ظاهر للعيال فتجمعوا، ورأيته ينظر إلىّ بكهن فنظرت إليه أنا أيضًا بكهن، فهو ليس أجدع منى ابن البرابرة هذا. نلعب جينيتر وى. قالها وسكت، نظر إليه العيال وقد تعجبوا من ذكر ذلك، لعبة سهلة. قال سامبو: نقول فى نفس واحد جينيتر وى ونلف اذرعنا مثل الساقية ويقلب كل واحد كفه، هى نفسها كلوا بامية ولكن على أحسن. قلت: أنا مش لاعب اللعبة دى، مين يلعب معايا كلوا بامية.

هتف العيال: نلعب كلنا جينيتر وى.

التف العيال حول الولد سامبو، ووقفت وحدى وأنا ملآن بالغيظ، نلعب جينتير وى، ياولاد الكلب. وكلوا بامية عليها كخ دلوقت، طيب لما نشوف. نسى الولد سامبو نفسه فى اللعب حين شتمته وأهله وناسه، من غيظى والله، ولم ينتبه إلا حين قذفته بحجر أصابه فى مشط رجله،

وكانت النتيجة أنه جرى خلفى، ومد رجله أمامى، فوقعت على وجهى ولطشنى على عينى فانتفخت من وقتها وساعتها، ولم أعد أرى بها، وعيال حارتنا يتفرجون علينا ولم يفكر أحدهم فى أن يحوشه عنى ويرفعه من فوقى ـ الخونة.

وكانت هذه هى بداية معركتى الحقيقية مع البرابرة كلهم.

أما ما كان من عيال حارتنا، فإنهم صاروا يلعبون مع سامبو كل يوم لعبة جينيتر وى، وصرت أنا لا ألعب معهم، وفى نفس الوقت أدبر خطة أنتصر بها على عدوى، ويكون هلاك سامبو والبرابرة على يدى بعون الله. وبينما هم ذات يوم يلعبون، إذ أحس العيال أن الولد سامبو يعاملهم معاملة الكلاب، وصار هو المتحكم فيهم، وأول من أحس ذلك، كان سعيد فرجانى، فتشاجر معه، ولم يعد يلاعبه وقد انضم إلى جانبى وأصبح يلاعبنى وألاعبه، وقد أخذت شلتنا تزيد وتتسع، وشلة الولد سامبو تضيق، وصرنا ندبر الخطط لهلاكه، فحارتنا لم تعد حارتنا على يديه وأيدى الزناجرة ناسه، فقد جاءوا هم أيضًا للعب معه فى حارتنا، والعجيب أنه طرد كل من كانوا يلعبون معه منا، وأصبح معروفاً أن شلة الزناجرة وصلت، وأنها سوف تلعب الآن جينيتر وى، وأن علينا أن نقف بعيداً نتفرج أو نلتم فى بيوتنا بدلاً من البهدلة والفضائح والجرسة التى أقسم عليها سامبو ذات يوم حين قال لنا: وأيمان المسلمين، إذا كل واحد ما حطش لسانه فى بقه، لأجرسه فى بولاق الدكرور كلها، وأفرج عليه أمة ما خلق. من يومها ونحن نخاف الجرسة، إلى أن جاء اليوم الذى ننتظره. وبينما نحن نتفرج عليهم وهم يلعبون، وكنا نحن شلة

كبيرة وهم قلة، إذ قلت يجب أن نلعب كلوا بامية، وإن هذا لابد منه الآن. وقلت أيضاً: على الخائف أن يبتعد، وكنت أعلم أن المعركة على وشك، ولكنى لم أعد خائفاً وأنا المشهور بالولد الجنى، تركى العيال وجروا لما أحسوا بالخطر، ولم يبق معى سوى سعيد فرجانى شريكى القديم، اقتربنا من الأعداء جداً، وكانوا شلة كبيرة، فردت يدى وفرد سعيد يده وكانت ترتعش وقلنا فى نفس واحد: كلوا بامية. قلتها وصمت، وارتفعت يدى إلى عينى وصرخت، فقد فاجأتنى طوبة جعلت الدنيا ظلاماً فى ظلام، وما عدت أرى حتى سعيد الذى جرى له ما لا يسر عدواً ولا حبيباً - وسعيد هذا، سوف يكون هلاك سامبو والزناجرة على يديه بالقدرة قبل أن يموت منتحراً - وهو كلام إذا وصلنا إليه نحكى عليه.

أرجع إلى السياق فأقول إننى بعد أن فاجأتنى الطوبة فى عينى، ولم أعد أرى شيئاً، ولا أنا مدركاً لما حولى، ودارت الدنيا بى، ولم أميز سماء من أرض، ومن شدة الوجع لطمت على وجهى لطمتين وصرخت: عينى راحت يا كفرة. ومشت بى قدماى إلى البيت وأنا أجرهما جراً وعند دخولى البيت، كنت أصرخ وأعيط وأشد شعر رأسى من شدة الغيظ، وأضع يدى اليمين على عينى اليمين من شدة الوجع والنقح. بحثت عن طماطم فوجدت واحدة كانت أمى تخبئها للطبيخ، فتحتها وكبستها على عينى فشعرت بالراحة. ثم إننى جلست أحسب حساب مداخل ومخارج حارتنا، وأدبر الخطط التى أقتل بها سامبو وعائلته كلها. قلت: الصباح رباح، ويا أنا يا أنت يا سامبو.

فى الصباح، قمت من نومى على صوت العيال فى الحارة، غسلت وجهى وعينى كانت مقفولة ففتحتها بيدى ومسحت العماص من فوقها، نزلت الحارة وفى جيب البيجامة وضعت موس حلاقة جديد، وجدت حارتنا تمتلىء بالبرابرة وسامبو يقف فى وسطهم، لمحت سعيد شريكى يتحدث مع سامبو وحول رأسه لفة شاش كبيرة، وذراعه اليمين مربوطة فى رقبته، أما عينه الشمال فكانت منفخة، وعيال حارتنا جميعًا يقفون حول سامبو، وكان هو يرتب العيال ورآنى فأخرج لى لسانه، وبدأ يلعّب حاجبيه من تحت لتحت، وكنت أجلس على عتبة بيتنا، حين بدأ سامبو يجرى رافعاً رجله، والعيال تجرى وراءه، هو يغنى وهم يردون عليه:

يا رجل البنطلون خشى واطلعى

تلاتة فى البدرون يا صفرة فرقعى.

***





لو رأى أحدكم ما رأيت لصدق ما أقول، بعينى هاتين رأيت أحدهم فكدت أفارق من شدة ما رأيت. اسمعوا، أحكى من البداية، صلوا على النبى: الحرب كانت قائمة بيننا وبين بلاد نمنم، وفى بولاق الدكرور، وبالتحديد فى شارع همفرس، تقع أعلى عمارة، ذات صباح قام رجال الدفاع الشعبى بتركيب صفارة إنذار كبيرة، إذا انطلق صوتها أرعب البلد كلها واختفينا فى غمضة عين، تم حفر خنادق لولبية إذا دخلها الإنسان لا تعرف له طريق جرة، ورأينا رجال الدفاع الشعبى يقومون بأول تجربة عملية لمقاومة الأعداء. تجمعنا كلنا أمام شارع عشرة الذى تمت فيه التجربة، أخذوا يصعدون العمارة فرداً فرداً، ربطوا حبلا أعلى العمارة وأسقطوه فى الشارع، حين انطلقت صفارة الإنذار، رأيناهم

ينزلون على الحبل واحداً فواحداً، ونطق الميكروفون : برافو عبدالقوى، ها هو ذا ينزل فى سهولة ويسر، أحسنت يا محروس، شبك قدميك فى الحبل جيداً ولا تنظر تحتك. ووقعت خوزة أحدهم الحديدية على أحد المشاهدين فمات من وقته وساعته.

جاءت التجربة الثانية فكانت أشد خطراً، وسمعنا فى الميكرفون:

يا أهالى بولاق الدكرور، ماذا لو جاء أعداؤنا من بلاد نمنم وقاموا بإشعال الحرائق؟ رد صادق العلاف فى صوت لم يسمعه أحد: نبقى مش رجالة وحلال فينا الحرق بجاز. رأينا خرطوماً أبيض غليظاً طويلاً جداً ممدوداً بطول الشارع، أشعلوا النار فى كومة الأقفاص والقش فبانت النار قوية متوهجة كنار الأعداء، انطلقت صفارة الإنذار، رجال الدفاع الشعبى وقفوا صفاً واحداً بطول شريط الخرطوم، انحنوا عليه فجأة لما انطلقت الصفارة، أمسكوا بالخرطوم ووجهوا رأسه للحريق، انتفض الخرطوم وانتفخ، فانتفضت معه الرجال ووقع البعض وحدث هرج ومرج غرقت معه المحلات والبيوت، وكانت النار أكلت الاقفاص والقش، وانطلق صوت الميكروفون: برافو يا ولاد، تجربة ناجحة.

رأيناهم يستعدون للحرب، وصوت الميكروفون أبو هورن كبير يلعلع فنحس بأن الحرب آتية ولابد من المواجهة، وأننا قد نلمح أحدهم فى أية لحظة، فماذا نفعل؟ وكيف نتصرف؟ خاصة وهم يأكلون لحوم البشر امثالنا، وأشكالهم مخيفة، فهل نتحمل نحن رؤية رجل بذيل طويل يأكل لحم عدوه حياً؟

هذا ما حدث بالفعل

حين سمعنا ذات صباح بالخبر: طائرة الأعداء الآتية من بلاد نمنم، وقعت فى بولاق الدكرور، بالتحديد، فى جنينة الخواجة همفرس،

انطلقنا لحظة سماع الخبر، وفى أيدينا كل انواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة، حملت معى مسطرين أبى، وحمل أخى الكوريك، ورأيت غطيان الحلل والشوك والسكاكين فى الأيدى، الكل يجرى ناحية الجنينة لرؤية الآتى من بلاد نمنم، الرعب داخل الصدور من لقاء ابن نمنم أبو ذيل آكل لحوم البشر، لما اقتربنالمحنا شيئًا معلقًا فى شجر الخواجة همفرس، اقتربنا أكثر ورفع كل واحد سلاحه، ها هو ذا ابن نمنم، أحد أعدائنا مدلدل فى حالة تسرنا وتسوءه، تشده خيوط كثيرة إلى الشجرة، يرفس بقدميه هواء بلدنا، الجبان، بجانبه، يرقد حطام الطائرة وقد عدمت العافية، التففنا حوله فكنا دائرة كبيرة كانت تضيق وتقترب من العدو، ولمحنا الخواجة همفرس يقف أعلى قصره ويشير بيده إلينا: ابتعدوا يا غجر عن الجنينة. لكنا اقتربنا حتى أصبحنا تحت عدونا تماماً، نظرنا جميعاً إليه، أين ذيله؟ قلنا أخفاه فى ملابسه فمزقناها ولم نر شيئاً، وقعنا فى بلبلة، لابد أن يكون عدونا بذيل، فأين هو إذن؟

سمعنا صوت الميكروفون: الدفاع الشعبى يناشدكم ضبط النفس، ابتعدوا عن الهدف بهدوء. كانت الناس تبتعد، حين صرخت: أنا رأيت ذيل ابن نمنم. لم يسمعنى أحد، كانت الناس تقترب من قصر الخواجة همفرس، أصبحوا تحته تماماً أشار لهم بالابتعاد فاقتربوا أكثر، صرخوا فى نفس واحد: انظروا، ها هو ذيله، ابتعدوا يا غجر. لكنا اقتربنا، ثم إننا دخلنا قصر الخواجة همفرس.

* * *



تجمعنا نحن عيال الحارة، فعملنا جيشاً كبيراً يهزم الأعداء.

وكانت الحرب فى بدايتها، كنا نسأل: هل انتصرنا؟ فلا يرد علينا أحد، والجميع يهتفون : ها نحارب، اسرائيل الأرانب. فنفرح لذلك ونصفق بأيينا ونتجمع فى بدايات الليل جيشاً قوياً يهزم الأعداء، نلف على البيوت وننادى بالصوت العالى: طفى النور يا ولية. إحنا عساكر دورية.. طفى النور يا مراتى..داحنا عساكر ظباطى. فيطفئون النور، ويطلون زجاج النوافذ بالزهرة الزرقاء خوفاً من غارات الأعداء، ويأخذ أخى فـأســه فى يده ويذهب يقف على الكوبرى يحــرس أول بولاق الدكرور.

سمعنا نداء أبى فتجمعنا والدنيا عتمة كحل، أخذنا نلتف حوله فى حجرتنا الضيقة، همس: أقول لكم على سر فلا تفضحونى وإلا أعدمونى. بانت عيوننا فى الظلام وكانت تلمع، أمسكت بيد أخى الكبير خوفًا من السر، ركع أبى على ركبتيه،خبط بكف يده على أرض الحجرة مرتين: هنا دفنت السر من أربعين سنة، وهذا أوان خروجه، فالاعداء قادمون، ونحن نحتاجه الآن. أشار لأمى فأزاحت حصير الأرض، أخذت تكوره حتى لمته كله، أخذ أبى فأس أخى التى يحرس بها أول بولاق، وضع اصبعه على فمه وقال: هس.

فسكتنا جميعاً وسمعنا صوت أنفاسنا، بحذر شديد أخذ يدق أرض حجرتنا بالفأس دقًا خفيفاًحتى تكسر الأسمنت، أشار لأخى هامساً: احفر هنا. بهدوء ركع أخى على ركبة ونصف ومد يده وأخذ يحفر بأصابعه، وأبى يتصنت على خطوات الناس ويشير لأخى قف، استمر. حتى قال له يكفى. كانت الحفرة عميقة فاقترب أبى منها وركع ومد يده. وقلت لأمى: أنا خايف ياختى. فقالت هس. لكنى لم أهس وأمسكت يدها وبكيت. كانت يد أمى ترتعش فسكت، أخرج أبى يده من الحفرة ولم نر شيئًا من شدة الظلام. وقال: ها هو ذا السر الذى أخفيته عن العالمين أربعين سنة ويزيد. ولكنا لا نرى سرك يا أبى. أمر أمى بإشعال شمعة فرأينا فى يده خرقة ممزقة ملفوفة كذا لفة، أخذ يفكها بحذر شديد خالص ونحن ننظر إليه فى خوف، وقلت سوف يخرج من الخرقة ثعبان يسمى الشجاع الأقرع، أعرفه ويعرفنى، ورأيته ذات يوم يخرج من عصا الحاوى، وحتى لا يطلع ويأكلنى وقفت وراء أمى، انتهى أبى

من فك الخرقة وقال: السر أمامكم الآن، فلابد من ظهوره مهما طال الزمان. رأينا جراباً كبيراً من الحديد الصدئ، أخذ يسحب الجراب سحباً بطيئاً حتى خلعه، رفع يده فبان خنجر صغير، قال أبى: سرقته من عسكرى إنجليزى أيام الاحتلال بعد أن قتلته، وظلوا يبحثون عنى إلى الآن، يحتاج لمسح ويرجع كما كان. أمسك الخرقة فى يده، وفى فرح مسح مسحة واحدة، ورأينا يد أبى مليئة بقطع الحديد الصغيرة الصدئة. ونظر إلينا أبى فى ذهول وهو يفرغ يده فى الخرقة ويلفها كذا لفة، وضعها فى الحفرة، وفى صمت أشار لأخى فردمها، أشار لأمى ففردت حصير الأرض، وبينما نحن واقفين لا نتكلم، وبينما أمى تشوح بيديها وتعوج فمها يميناً ويساراً اذ رأينا أبى يتكوم فى ركن، ويضع رأسه بين ركبتيه، ويعيط.

* * *



هل أتاك حديث المصيبة التى وقعت علينا يوم ذهبنا كى نرى على جمبرى ونناديه عليه بالصوت العالى: على جمبرى دور سبع مرات، فكاد يمسكنا البسطويسى حارس جنينة الخواجا همفرس ويعدمنا العافية، فدعونا عليه فمات من وقته وساعته.

وإذا أسمعك هذا الحديث فاستمع له وأنصت لعلك تبلغ مالم نبلغه نحن الثمانية، أولاد الحارة الواحدة، وقد جرى على قلوبنا مالم يجر على قلب بشر من قبل.

وهذه بداية الحديث فافهم. كانت الحرب فى بدايتها ولحظة اتخذنا قرارنا بزيارة على جمبرى، كنا قد سمعنا من أولاد الحارات المجاورة،

وقرأنا عنه فى الكتب الصفراء التى نشتريها من عم زكى على الكوبرى الخشب، وعم زكى هذا، له قصة عجيبة، أمور مطرية غريبة. نحب أن نسوقها إليك يا مستمع - فاستمع: لمّا نذهب إليه، يكون جالسًا فوق الكوبرى الخشب، فارشًا حوله أبو زيد الهلالى وحمزة العرب وأرسين لوبين، فنرمى عليه السلام فيرد علينا بقرف، ولما كان يعرف أن جيوبنا خاوية، وأن ساعة مجيئنا إليه تكون ساعة نحس، فينصرف عنا بالنظر إلى ترعة المجنونة. نلتف حوله ونحن ننظر إلى الكتب ونقلب فيها، إلى أن يبدأ هو:

لِمَ تقفون هكذا؟ فرقعوا من وشى.

فنرد عليه:

جئنا لنراك يا عم زكى.

فتضحك أسنانه الصفراء ويقول:

اجلسوا يا شياطين الإنس.

فنجلس، ونظل نتودد له فيقول ونرد وراءه:

آن.. دى .. ترواه .. كاتر.. حتى إذا ما انتهينا من عد عشرة بالتمام والكمال، يبدأ بالسؤال عما نريده، فنأخذ منه الكتب على أن نردها فى أقرب وقت، ثم إنه لا يتركنا قبل ان يحكى كيف دوخ الإنجليز، وكيف أنه كان مديراً لشركة كبيرة، لكنه طرد ظلمًا، عندها نأخذ الكتب ونجرى الى بيوتنا نقرأها، ونتبادل أرسين لوبين بأبى زيد الهلالى.

نرجع إلى سياق الحديث فانتبه.

قررنا زيارة على جمبرى نحن الثمانية، وترتيبنا على التوالى: زنا وأختى حنان، محمد عبد الواحد وأخته هناء، درش وأخته فاطمة، نعيمة وأختها توحة، اتخذنا التدابير اللازمة لمثل هذا الموضوع الخطير، والذى أصبحنا نحلم به.

قلت: سوف زنادى على الواحد منكم باسم غير الاسم، حتى لا يعلم أحد إلى أين نحن ذاهبون.

قال محمد عبد الواحد الذى سوف يموت بعد حين، لما يذهب إلى مدرسة التجارة فتدوسه العربة كارتر، ويعدم شبابه، وهو حديث شرحه يطول وليس هذا مقامه سمعت أنه عفريت كبير، وأن الخواجا همفرس رصده بخاتم الملك سليمان حتى إذا ما اقترب أحد من الجنينة أحرقه فى الحال.

قلت: سمعت هذا الحديث من قبل، وقد عملت اللازم، ثم إننى هززت رأسى وضحكت: زنتم لازلتم عيالاً يا عيال، على أية حال، لا تخافوا، فسوف أحميكم من هذا العفريت. أخرجت من جيب البيجامة ورقة على هيئة مثلث فردتها وجلست، جلس العيال من حولى على الأرض.

قلت: ذهبت أمس إلى عـــمى زكى بائع الكتب، حكيت له على الموضوع فوعدنى خيراً، وما كان منه إلاّ أن أخرج قلمه الأحمر، وورقته الصفراء، وعمل هذا الحجاب، فإن حامله لا يهاب إنساً ولا جناً.

هذا حجاب جليل القدر عظيم الشأن وهو أمان من كل بلية، ومن
على جمبرى الذى هو من شياطين الجان، وفيه قضاء
للحاجات والمحتاجات والمحبة والقبول، وفيه شفاء من
الأمراض المستعصية على شياطين الأطباء
والحكماء من كل صنف ولون، بحق قدرة
النون والقلم وما يسزون اقضى حاجة
حاملع جمال بن عبدالجواد الذى
يهمنى أمره يا على يا جمبرى.
تعجب العيال وقالوا: هل
يصرف هذا الكلام
العفريت الذى
هو على
جمبرى.

ضحكت وقلت: نعم يصرفه، بل انه يحرقه اذا قلت له اسرع بالرحيل بحق المساء والصباح، أيها العجل النطاح.

اطمأنوا وقالوا سوف نفعل مالم تفعله عيال بولاق الدكرور كلها، حتى الولد الشحط قنطر ابن أبو فتحى السمسار.

قبل أن ننصرف قلت: لا تنسوا موعدنا اليوم عصراً، عند طابق الدباية، وكلمة السر «على يا ويكا» حتى لا يشعر بنا على جمبرى إذا ما نطقنا اسمه كاملاً.

قلت لأختى : كونى مستعدة للذهاب لحظة أنادى عليك «على يا ويكا»، ثم دخلت تحت السرير فسرقت رغيفين من مشنة العيش،

فتحتهما ودهنتهما «بالمرتة» وخبأتهما فى جيب البيجامة، أخذت الحجاب، وضعته فى جيبى العلوى بالقرب من صدرى كما قال عم زكى، لبست الكاوتش فى قدمى وخرجت، وقفت على السلم، زعقت: على يا ويكا. جاءت أختى تجرى، وأخذت أزعق فى بيوت شارعنا: على ياويكا، فتطلع العيال. وصلت أنا وأختى عند طابق الديابة، وهذا الطابق مسكون بالجن والعفاريت التى طلعت بعد أن قتل عزيز بائع الكتاكيت هو وإخوته الثلاثة وأبوهم، ورآهم الناس فى الطابق مثل البالونات المنتفخة. لم يكن أحد من العيال قد جاء فلعبت أنا وأختى نطة الإنجليز حتى جاء درش وأخته يجريان ناحيتنا، ثم جاء بعدهما محمد عبدالواحد وأخته، ولم يبق سوى نعيمة وأختها توحة.

قلت: تأخرنا، ولن ننتظر نعيمة وتوحة.

وكانت الشمس حمراء فخفت أن تظلم الدنيا قبل أن نرى على جمبرى. عند تحركنا ناحية جنينة الخواجا همفرس، لمحتهما تجريان ناحيتنا مثل أبو فصاد الذى يصطاده محمد عبدالواحد من شارع عشرة. وصلنا عند باب الجنينة كان مقفلاً، فوقفنا.

قال محمد عبدالواحد ودرش: ننط من فوق الباب الحديد.

قلت: من منا ينط الأول.

قال محمد: أنت.

قلت: ما تنط أنت الأول يا ناصح.

لم يوافق واحد على أن ينط هو الأول، ففردنا أيدينا وهمسنا فى نفس واحد:

كلوا يامية.

قلبنا أيدينا جميعاً على الظهر، فأعدنا المحاولة:

القطة العامية.

قلبت يدى، وقلب درش يده، ولم يتحرك محمد عبدالواحد. قلت هذه آخر مرة.

سرقت قميصى.

وقع الدور على درش فتقدم من الباب الحديدى، ووقفت أخته ونادت عليه ارجع يا درش، لكنه تقدم، وكان خائفًا فطلع أول حديدتين وثنى رجليه وشب على يديه، ثم إنه رفع رجله اليمين فخطى للناحية الأخرى. وهو ينزل، كانت قلوبنا تدق، وجاء الدور على محمد فاستعد. كان درش قد ابتعد عن الباب ومشى فى الجنينة، سمعنا صوت نباح، ورأينا درش يجرى ناحية الباب وهو مسروع يصرخ ويعيط، ووراءه يجرى كلبان طوال عراض مثل الكلب هول الذى رأيناه فى التليفزيون.

بكت فاطمة وصرخت: درش.

أخرجت من جيب البيجامة رغيف المرتة، قطعت منه ورميت، جرى الكلبان على اللقم وتركا درش، صعد محمد عبدالواحد وقفز داخل الجنينة، قطعت ورميت فجرى الكلبان، حين صعدت نعيمة وأختها توحة، كنت انتهيت من الرغيف الأول، وبدأت فى إخراج الثانى حين نبحا، رميت نفسى داخل الجنينة، أتى الكلبان ناحيتى وزاما وهزا

ذيلهما، كنت أنتهى من الرغيف الثانى لما جريا ناحية رجلى، بكيت وصرخت: الحقونى. لكنهما سارا بجانبى يتمسحان بى فضحكت ثم أننى مسحت على رأسيهما بكفى فنظرا إلى وضحكا. أخذنا نمشى فى الجنينة التى قال عنها الولد رضا ابن البرابرة أنه ما دخلها أحد قط وفلح، وقال أيضًا : هل تعرفون حكاية خالى سيد العبيط، كان أنصح من أبيكم، وقد دخلها ذات يوم فجرى له ما جرى وانعقد لسانه بقدرة على جمبرى.

ورأينا الفاكهة من كل صنف ولون

قلت: لو الواحد يجد تفاحة بطول بيتنا فآخذها معى أضعها على السطح وأجلس فوقها أقطع وآكل ولا تنتهى أبداً. أمى تشترى لنا تفاحاً صغيراً جدًا مثل «البلى» كذا العنب الفرط من أم صابر الجالسة على ناصية الحارة تبيع الحرنكش ورءوس الخس.

أخذ العيال يرمون الشجرة بالحجارة ويلتقطون ما يقع على الأرض يعبئونه فى جيوبهم.

قلت: لن آخذ شيئًا حتى أرى الجنينة كلها وأرجع آخذ ما يكفينى وأمى وأخوتى - كذلك أبى. بعدت عن العيال فأصبحت وحدى، ولمحت شجرة كبيرة جدًا فرعها فى السماء، رأيت تفاحة معلقة من رأسها، تفاحة واحدة حمراء، ياه، يا دين النبى كانت التفاحة كبيرة جدًا، أكبر من بيتنا، عند رجوعنا أحملها أنا والعيال، لن أستطيع حملها وحدى، وقد يساعدنى الحجاب فى حملها.

اقتربت من العيال، وكنا نبحث عن على جمبرى، لكنا لم نجده.

قلت : أنا متأكد يا عيال من وجوده هنا.

وكانت الشمس تغيب عنا، ولم نحس بها تختفى فرأينا الدنيا كحلاً. خاف درش وقال: يا عم الدنيا كحل وأنا خائف.

انكمشت أخته فاطمة وقالت أنا خائفة، كذا قال العيال، ولم أكن خائفاًلأن معى حجابى، فهو يحمينى من زلزلة على جمبرى. لحظتها، تحسست جيبى فلم أجده، ارتعبت واصفر وشى، نظر إلى العيال، قال محمد عبدالواحد:

مالك ؟!

لا أجد الحجاب فى جيبى.

قال درش : يمكن وقع منك وأنت تنط.

قلت : أنا خائف، لو أحس على جمبرى بنا الآن، سوف يأكلنا، وقد أصبح أنا الذى تحديته، مثل سيد العبيط أو حمبوسة.

أمسك كل منا بيد الآخر ونحن نرتعش، سمعنا نباح الكلاب وكانت تتجه ناحيتنا وصوت يشخط : من هناك.

صرخت توحة وصرخت محاسن، وبكى درش وانكمشنا فى بعضنا.

سمعنا صوت أقدام كثيرة تجرى وأصوات :

امسك حرامى، حلق يا جدع، امسك ولاد الهرمة.

جرينا ناحية الباب بأقصى سرعة، وقعت ولحقت نفسى فقمت مسرعاً أمسكنا بالباب وأخذنا ننط فنرتمى فى الناحية الأخرى خارج الجنينة الملعونة، نط جميع العيال، وكانوا يقفون خارج الجنينة، وكنت أنط حين أمسكت قدمى يد فصرخت، صرخ العيال، رفعت رجلى فلم أستطع، وكانت اليد تجذبنى لأسفل بقوة، لكنى رفعتها مرة أخرى فانخلع الكاوتش من قدمى فوقعت خارج الجنينة، سمعت طقة رجلى فبكيت.

لما قمت، لم أجد أحداً فى الشارع، ثم اننى مشيت أعرج ناحية بيننا، وتذكرت التفاحة التى بطول بينا، فبكيت.

* * *

٦

كنا فى زمن الحرب

ولو يعلم أبى عند اجتماعه بنا على الطبلية أننى سوف أقتلها، ما كان تركنى. ولو أنه نظر فى عينى فى تلك اللحظة، ما كان رأى شيئاً.

حدثنى أبى كثيراًعنها، وحدث جدى أبى، وحدثت جدتى جدى. قالوا جميعاً أن بأحشائها مفتاحين، أحدهما للجنة، والآخر للنار، ولم اكن رأيت الجنة، وكنت قد صممت على أخذ مفتاح الجنة من أحشائها. لم آكل كثيراً، نظر إلىّ أبى فى لوم حتى أكمل طعامى، زجرتنى أمى لأنى اصبحت مسلولاً مثل خيال المآتة من قلة الأكل، كان كل تفكيرى فى هذه اللحظة فى كيفية اصطياد واحدة، كنت أعلم ان حارتنا تمتلئ بها، وكثيراً ما كنت أراها، لكنى لم أكن أدرى أن بها مفتاحين، قال

سعيد صديقى أن مفتاح الجنة لابد وأن يكون من الذهب الخالص، خرجت إلى الحارة أحمل فى يدى علبه صفيح، كان الشارع يمتلئ بالناس والأطفال ولم يكن هناك سحالى ، قررت أن أنتظر عند أحد الشقوق التى أعرفها جيداً وأعرف أن بها سحالى كثيرة، جلست على حجر بجانب الشق، أخذت أنظر إليه وقد بان أسفل الجدار مشتبكاً مع الأرض مكوناًخرماً يتسع لإدخال يدى، مرت ساعة ولم تمر أمامى سحلية واحدة، مرت ساعة أخرى ومرت من أمامى خنفساء، كان جسمى يقشعر ولكنى نظرت إليها باستهانة، تركتها تسير رغم رغبتى الشديدة فى دهسها بقدمى، شعرت بالجوع فأخرجت من جيب البيجامة لقمة ناشفة أخذت أقضمها بتلذذ، كأن الأرض انشقت وابتلعت كل سحالى الحارة، مرّ النهار وأظلمت الدنيا ولم تكن بى رغبة فى الرجوع قبل أن أصطاد واحدة، لو أننى رجعت الآن لضربنى أبى كما يضرب أمى كل ليلة، بحلقت فى الخرم، شعرت فجأة برأسى يرتج، نظرت ورائى، أمامى، بجانبى، كان يقف ويده فوق رقبتى، نظرت إليه فى دهشة، أمسكنى من ياقة بيجامتى، جرجرنى فى اتجاه بيتنا، انتهيت خلاص من دروسك عشان ترمح الرمح ده يا جبان، كانت رغبتى فى البكاء شديدة، لكنى لم أبك : أنا خلصت مذاكرة يا خويا. ضربنى بقدمه، وقعت، لم أبك، غور من وشى على أوضتك، إياك أشوفك صاحى. صعدت إلى السرير ولم أكن اريد النوم، قررت أن أظل صاحياً تحت اللحاف، ورأيتها، كانت تتسلل خارجة من الخرم، كان الخرم كبيراً جداً، وكانت السحلية أيضاً كبيرة جداً، لم أر مثلها فى حياتى، أخرجت لسانها فبان مثل الأستك الرفيع، وقفت أمامى ونظرت إلىّ،

فنظرت إليها، كانت عيناها حمراوين، لم تكن معى علبة الصفيح، مدت لسانها فجأة فلسعنى فى وجهى، أخذ يلتف حول وسطى وعنقى وقدمى، بدأت تشدنى إليها، ولكنى أمسكت بالأرض وصرخت، ولم يكن هناك أحد بالشارع فاتجهت إلى فمها الواسع جداً، وابتلعنى، تخبطت فى الجدران وكان الظلام شديداً، اصطدمت بشىء صلب، كان يشع نوراً، لمسته، كان ناعماً، تحسسته، كان مفتاحاً، بل كانا مفتاحين كبيرين متشابهين حتى اننى لم أعرف أيهما مفتاح الجنة، وضعت أصبعى على أحدهما، أشرت للآخر، قلت : حادى بادى، سيدى محمد البغدادى، دى من دى يا خير الله، الأحسن دى. استقر أصبعى على أحدهما، قلت هذا هو مفتاح الجنة، حملته رغم ضخامته الشديدة، كانت هناك سلالم تتجه إلى أعلى، صعدت عليها إلى أن أصبحت فى الخارج. نظرت إلى السحلية، قلت أنا متشكر يا أختى. نظرت إلىّ وضحكت فضحكت، سارت بعيداً على فحملت المفتاح فوق كتفى وأخذت أسير فى طريقى إلى الجنة، لم أكن أعرف أين توجد الجنة، ولكن أخذت أسأل بصوت عال: فين الجنة والنبى يا عم .

قال أبى أننى فقدت عقلى وصفعنى على وجهى، قمت مفزوعاً وأخذت أبكى لأننى لم أجد المفتاح بجانبى. نظرت إلى أبى، وجدت المفتاح يطل من زاوية عينه، خبأت نصف رغيف ناشف داخل جيب البيجامة، بحثت عن العلبة الصفيح، قلت : أنا رايح اذاكر عند حسين صاحبى. لم أذهب لحسين، وقفت عند الخرم، نظرت اليه، كان بالأمس واسعاً، وجدته ضيقاً شديد الضيق، جلست على الحجر المواجه للخرم،

وضعت العلبة الصفيح بجانبى، أخرجت نصف الرغيف الناشف، أخذت أمضغه، قلت : اطلعى يا سحلية عشان أسبق أبويا وأروح الجنة أنا وأنت وحدنا. كان الخرم يتسع، وكانت هناك سحلية تزحف خارجة منه، وقفت، أمسكت زلطة فى يدى، أخرجت لسانى : أنا رايح الجنة غصبًا عنكم. قذفت الزلطة فلم تصب السحلية، قذفت أخرى وأخرى ولم أفلح فى إصابتها، ولما لم أجد ما أقذفها به، وقفت السلحلية واستدرت لى، نظرت إلى وأخرجت لسانها، لم يكن طويلاً مثل الأستك، جريت أبحث عن زلطة، نظرت ورائى فكانت السحلية تبتعد.

***



كانت الحرب قائمة

وساعة العصارى، نادى علىّ الولد أحمد، ونادى علىّ الولد حازم، والبنت كوثر بنت عم مصطفى، وقالوا جميعًا فى نفس واحد : هيا بنا. فقلت: يَلاّ

وهناك، وحين نذهب إليه، نفرح جدًّا لأننا سوف نقابله، ونفرح جدًّا لأن الطريق مليان بالبط الأسود والأوز الأبيض الذى يجرى وراءنا يريد عضنا، فنخاف ونجرى ونحن نضحك. وحين وصلنا إليه، وقفنا على حافة النهر، وجعلنا من أيدينا قراطيس وضعناها على أفواهنا ونادينا بالصوت العالى فى

نفس واحد : اطلع لنا يا ديب. وسكتنا فلم يطلع أحد، وقلنا : جئنا إليك يا ديب. وسكتنا فسمعنا صوت العصافير ولم يرد أحد. وانتظرنا أن يخرج لنا فخرج، وانتظرنا ان يتكلم : أهلا بالعيال. دخل فدخلنا. بيته فى النهر، وقال أبى : إذا خرج الديب من النهر مات كما السمك. جلس على الحصير فجلسنا، تجمعنا حوله: أهلا بالعيال. أهلا يا ديب. قلنا : احك لنا يا ديب، يا ديب احك لنا حكاية. تنحنح الديب، ورقص شاربيه وشعر رأسه فضحكنا وضحك، وقال: احكى لكم حكاية العنزات الثلاث، واحدة بازى، وواحدة مازى، وواحدة تلعب على عكازى.

قلنا: توء توء، سمعناها أمس يا ديب، احك لنا غيرها، سمعناها أمس.

حين جلس الديب مقرفصاًتململ، فاستند بكوعه على المسند، ومدد رجليه ونظر إلينا وقد ملّس على شاربيه، قال: صلوا على من يشفع فيكم.

قلنا: ألف صلاة عليك يا نبى.

زيدوا النبى صلاة.

عليه الصلاة والسلام.

كنا بالليل يا عيال، والدنيا كحل ليس فيها صريخ ابن يومين، وكان البرد رصاصاً يخرم البدن، خرجت للنهر، ركبت المركب وفردت الشبك فوق ذراعى وطوحتها بعزم قوتى فاستقرت فى النهر، تركت المركب تمشى مع التيار وعفرت سيجارة وغنيت عينى عليك يا مراكبى، فعجبنى اللحن فزدت فى الغناء : البحر بيضحك ليه وانا نازل اتدّلع اصطاد سمك. توقفت فجأة، فقد

هدنى السكون، وقلت لو ان لى ولداً يؤنس وحـدتى فى النهـر، ولكنى كنت مطمئناً فالنجوم معى، والقمر كان بجانبى فى النهر، والأسماك صحابى، ولا أخاف الليل. وكنت أسحب الشبكة، ووجدتها ثقيلة جداً فحمدت الله وقلت الخير يأتى دائماً فى الليل، وأنا أحب الليل ووشوشة النهر، وسحبت، وسمعت عويلاً وصراخاً وأصواتاً كثيرة فقلت أنا لا أخاف شياطين النهر، ولمحت سمكة كبيرة معلقة فى الشبكة، وكنت لا أستطيع رفعها فصحت صيحة عجيبة وجذبت بكل قوتى، تخيلوا يا عيال، السمكة جذبتنى، وكتاب الله السمكة جذبتنى، أنا أشد وهى تشد، وكانت قوية فسحبت المركب بسرعة شديدة فانقلبنا، المركب، وأنا، لففت الحبل المربوط فى الشبكة على يدى ولم أتركها وأخذت اغوص، وتحت الماء رأيت أشياء عجيبة، فهذه قصور من الذهب الخالص، وهذه نساء من الحليب الصافى، هل تدرون ماذا حدث بعد ذلك يا عيال.

قلنا: لا يا ديب، أكمل يا ديب.

قال: لن أتحدث قبل أن نأكل، سوف نأكل سمكاً.

خرج الديب، وكنا نستعجله حتى يكمل لنا ماذا رأى تحت الماء، وضربت الولد أحمد على قفاه فزغدنى فى بطنى. عاد الديب رماح يحمل قفة مليئة بالسمك، سمك قرموط يلعب ويهز ذيله وشواربه، أمسكته من إحداها فعضنى فى أصبعى، قلت: سوف آكلك يا قرموط. أشعل الديب ناراً وأخذ يشوى السمك، وقلت: ألم تجد خاتم سليمان فى بطن سمكة يا ديب؟

فأخذ يقلب السمك، وقال من بين شاربيه: أنا عثرت على خاتم الجن فى بطن حوت كبير. قلت: خبرنا يا ديب، خبرنا كيف عثرت على خاتم الجن، وهل رأيت الجن.

لن أحكى لكم حتى نأكل. فأخذنا نأكل بسرعة شديدة حتى نسمع حكاية خاتم الجنى، وكان السمك ساخناً فلسعنى فى حلقى ولسع البنت كوثر فأخذت تنفخ الهواء بفمها الصغير المليان بالسمك، وكنا نضحك، ومسح الديب يده فى سرواله الأسود الطويل، وقال نشرب شاياً. وقام لعمل الشاى، وقلت لو أن الواحد يعثر على مفتاح الكنز المرصود خارج بولاق كما قال أبى. رد الولد حازم: الكنز لا يفتح إلا بالدم، ولم يعثر عليه الرجل الذى قتل منذ ثلاث سنوات، هل تذكرون حين وجدناه مذبوحًا عند الترب، هذه الترب هى باب الكنز، ومن يومها لا أحد يمشى ناحية الترب بالليل. قلت: سوف أجده، فأنا أعرف مكانه، ضربنى أحمد على وشى وقال سوف أعثر عليه قبلك.

جاء الديب يحمل براد الشاى وكوزصفيح صغيراً فشربنا، وأشعل سيجارة ونفخ فى الهواء فتكونت سحابة من الدخان كبرت حتى كانت عفريتاً كبيراً بحجم الهواء.

قلنا: احك لنا يا ديب. شد نفساً طويلاً نفخة وتنهد وقال: أحكى لكم عن ابنى محمود، كان مثلكم بالضبط، ولد جميل بلون النهر، أمه كذلك، هل رأيتم أم محمود.

لا يا ديب لم نر أحداً.

أخذتها الجنية هى ومحمود لو تعرفوا السبب زال عجبكم، أصل الجنية كانت تحبنى جداً فغارت من أم محمود لانها أجمل منها، ولأنى احب أم محمود ولا أحب الجنية.

قلنا: احك حكاية محمود وأم محمود يا ديب.

ايه .. كان ذلك قبل أيام الجفاف بأيام، فى اليوم الذى ذهبت فيه لأصطاد بعيداًعند الضفة الأخرى للنهر، كان القمر كالرغيف البتاو، وكان يعوم فى النهر، قلت: سوف أصطاد القمر، وطرحت الشبك، وأخرجت من قاع المركب لقمة ناشفة وحتة جبنة وأكلت فشبعت، ملت على حافة المركب وغرفت حفنة ماء بكفى شربتها فارتويت، دخنت سيجارة، وكان النهر هادئاً فتحدثت مع السمكات مقدار ساعة أو يزيد، وفى الليل سمعت صوتى يغنى أغنية النهر، وسمعت موسيقى النهر فزدت فى الغناء، ووضعت يدى على أذنى وقلت بصوت عال: اسمع يا نهر، واسمعى أيتها السمكات الطيبة:

أول ما نبدى نصلى على النبى

نبى عربى لم بعد نوره نور

عاشق رأى مبتلى قال له انت رايح فين

وقف قرا قصته بكوا سوا لتنين

راحوا لقاضى الغرام لتنين سوا يشكوا

بكوا التلاتة وقالوا حبنا راح فين.

كان السمك ينط يلعب، وكان يقفز عالياً فيقع فى الشبك، وكنت قد توغلت فطلبت الرجوع، وقاع المركب امتلأ عن آخره بالسمك القرموط، والسمك البساريا، وكان المركب يشق النهر نصفين، وحين اقتربت من البيت، اصطدم المركب بشئ فكاد ينقلب، ولما دققت النظر رأيت وجهين يطلان من قاع النهر، انعكس القمر على وجهى محمود وأم محمود.

بكى الديب رماح، وأخذنا نطبطب على ظهره، وقلنا لا تبك يا ديب. وأخذنا نبكى فقال لا تبكوا يا عيال. وبكينا، وكنا نعرف ان محمود مات شهيداً على الجبهة، وأن أم محمود ماتت حزناً عليه، ومسح الديب عينيه بكم قميصه وقال: اسمعوا يا عيال، أحكى لكم حكاية.

قلنا : احك يا ديب.

كان هناك ثلاث عنزات، عنزة بازى، وعنزة مازى، وعنزة تلعب على عكازى. نظرت إلى الولد أحمد، ونظر أحمد إلى كوثر، ونظرنا إلى حازم، وقلنا فى صوت واحد: احك يا ديب حكاية العنزات الثلاث.

أشعل سيجارة، وسحب نفساً نتره فى الهواء فبان العفريت كبيراً، وبانت أسنانه بيضاء مسنونة تلمع وهو يأكل العنزات الثلاث، وقلت انا أحفظ هذه الحكاية أيضاً، وكنت أنام، وبدا صوته خافتاً

صلوا على النبى

ألف صلاة عليك يا نبى

زيدوا النبى صلاة

هم ثلاث عنزات، عنزة، وعنزة، وعنزة، ولما كانت العنزات الثلاث واحدة بازى، وواحدة مازى، وواحدة تلعب على عكازى.

كان صوته يخفت، وسمعنا صوت النهر والسمكات، وأصبح صوته همساً، وكنا ننام.

***



كانت الحرب قائمة، وظننا انها على وشك الدخول فى شارعنا، ولو سمعت الحكاية من البداية لصدقت ما أقول، فإن العفريت لما طلع لى، وكـان شكله شكل حـمـار، وقـال لى: دلنى على الطريق. فـعـرفت انه عفريت حمار، وأنه كشف نفسه بنفسه، فقلت أضحك عليه، وقلت له أدلك بشرط أركب فوقك، وقبل أن أركب، أغمدت مسماراً فى مؤخرته، فنهق وشهق ورفس الأرض بقدمه ومرغ جسمه فى التراب وأخذ ينط، وكنت أضـحك، وقال: ارحـمنى يا سيدى وشيل المسمـار وأنا أفعل ما تأمرنى به. فلما تيقنت أن العفريت أصبح حماراً بحق وحقيق، وأنه لن يتحول إلى عفريت إلا إذا نزعت المسمار ـ ركبته ـ وفوق ظهره هززت

رجلى، وعلى قفاه ضربته، ثم إننى كلمته قائلاً: حا يا حمار. فشهق ونهق ورفس وضرب الهواء ببوزه وقال: حاضر يا سيدى، ارحمنى وشيل المسمار. ولما وصلت إلى البيت، قفزت إلى الأرض، سقت الحمار حتى باب البيت، واريت الباب وأنا خلفه، أدرت الحمار حتى أصبح ظهره فى وشى ومددت يدى ونزعت المسمار من تحت ذيله، وبسرعة أغلقت الباب حتى لا يتسرب ريحه إلى بيتنا فيحرقه.

ضحكت البنت «زقلط» الطويلة ذات الضفائر الطويلة والضحكة الطويلة التى تشبه صوت الضفدعة، قالت خالتى أنها عانس وبايره، وأنها مثل البيت الوقف، وكنت أجلس بجانب البنت «زقلط» فتقوم وتبوسنى فى فمى بوسة طويلة فأتضايق واقول بيننا ريحة حنكك وحشة يا زقلط. فتقف وتضربنى على قفاى بكفها الكبيرة فتفرقع وأعيط، وأحلف أنى لن ألعب معها مرة ثانية، ولكن البنت زقلط التى تسكن أمام بيتنا تجيء عندنا وتقول: ما تزعلش منى ومش هاضربك. فأطلب منها ألا تبوسنى فى فمى مرة ثانية لأن ريحتها وحشة. فتقول مش هابوسك من حنكك، أبوسك من خدك. فأوافق، وتبوسنى ولسانها يلحس خدى فأقرف وأتضايق وأقول: إنتى مقرفة يا زقلط. فتضربنى على خدى وقفاى بيدها الثقيلة الناشفة فتفرقع وأعيط، وعندما أقول لأمى أن البنت زقلط تضربنى، تقول: ما تلعبش معاها تانى.

فى بيتنا تسكن خالتى «أم نبيل» زوجة «أبو نبيل» الترزى، والذى لا يرجع البيت إلا فى آخر الليل، فتأخذنا ونجلس على مصطبة السلم ونطفئ كل الأنوار خوفًا من غارات الأعداء، كما قال رجال الدفاع الشعبى، فتحكى والدنيا كحل، وأنا أخاف مما تحكيه أم نبيل، فإنها لما رجعت من الشارع، وجدت الباب مفتوحًا، وكانت أغلقته قبل أن

تمشى، ولم تأخذ فى بالها ودخلت الشقة، لكنها وجدت الأرانب تملأ الشقة عن آخرها فقالت من أين أنت الأرانب، وعندما نظرت وجدت عيون الأرانب تطق بالشرر، فأيقنت أنها عفاريت عاملة أرانب، رمت ريقها فى عبها وقرأت الكرسى فأخذوا يحترقون وهم يصوتون ويقولون: الرحمة.. الرحمة يا ست. وهى تقرأ حتى احرقتهم جميعاً. وتلمسنى «زقلط» فأفزع وارتعد فتقول لى أم نبيل: اسم الله عليك يا خويا، الشر بره وبعيد. أقول وأنا أتلفت حولى: هى العفاريت تنقلب أرانب؟ كيف أعرفهم لو طلعوا لى؟

تقول خالتى أم نبيل: ما يطلعوا إلا إذا كنت وحدك.

وترد زقلط: أنا معاك ومش هايطلعوا لنا.

بس انتى بتبوسينى وأنا باقرف يا أختى.

فيحمر وجهها وتقرصنى فى وركى، وتنظر إليها «أم نبيل» وتضحك وتقول لها: يا شقية، ربنا يعدلهالك ويرزقك بابن الحلال. وتنظر زقلط إلى الأرض فى كسوف شديد. ولما أطلع بيتنا، وتطفئ أمى نور الشقة وتأخذنى فى حضنها تقول: من إيه بتخاف؟ فأرد: من العفاريت الأرانب. فتقول وهى تضحك: ما عفريت إلا بنى أدم، نام وما تخافش، أنت فى حضن أمك. فألتصق بها والدنيا حر، والعرق البارد يملأ وجهى ولا أستطيع أخذ نفسى، وأحس بخروشة فأكتم نفسى حتى أسمع جيداً صوت العفاريت وهم يتحولون إلى أرانب، إلى أن أنام.

كان الرجل يعلق الكهارب على بيتنا وفى الشارع فمنعه رجال الدفاع الشعبى، فغارات الأعداء فى كل لحظة، وكانت أمى تزغرد ونساء شارعنا وهن يفركن الكسكسى فى الطشت الكبير، وكنت أقف

بجانب البنت زقلط، وقالت خالتى: ربنا يعدلها لك يا زقلط يا بنت حواء وآدم يارب. وانكسفت زقلط وأدارت وجهها للناحية الأخرى وقرصتنى فى وركى وقالت: تعالى نزغرد. قلت لها اننى لا أعرف، ولكنها وضعت يدها على فمها وأخذ لسانها يطلع وينزل، وكانت الذغزدة تخرج صواتاً، قلت: إنتى كمان ما بتعرفيش تزغرتى يا أختى. فأخذتنى من يدى ومشينا إلى شارع عشرة وكان الزرع طالعًا كبيراً جداً والأرض مروية، والدنيا كحل. قلت: أنا خايف يا أختى. طبطبت على ظهرى وقالت: ماتخافش، أنا معاك، وكمان أوعى تخاف أحسن يطلعولك. ودخلنا الزرع، وأخذت تبحث عن ضفدعة حتى وجدتها وكانت كبيرة جداً أخذت تنظر إلينا بعينيها الكبيرتين وتبلع ريقها وتنط، جرينا خلفها ننط ونحلق عليها إلى أن أمسكناها، قلبتها زقلط فى كفها فبانت بطنها البيضاء الطرية، قالت لى: إلحس. قلت: أنا خايف، وكمان قرفان يا أختى ويمكن كمان تكون ضفدعة عفريت. ضحكت زقلط وقالت أن العفاريت ينقلبون أرانب وحميراً فقط، وأنهم لا يتحولون ضفادع أبداً.

قلت: الحسى إنتى الأول. فلحست بطنها البيضاء بلسانها الأحمر الكبير، وكانت تلحس وتبلع ريقها فأخذت أبلع ريقى وأنا ألحس مثلها حتى أعرف أزغرد، وكنت أحس بالقرف، ولكن البت زقلط لفت رجلها حول رجلى فوقعت على الزرع ووقعت فوقى وقالت: يايلاَ نلعب عريس وعروسة.

قلت: لأ. وكنت خائفاً أن تضربنى فأكملت: نلعب فى البيت أحسن.

قالت: نلعب هنا أحسن، يا بلاش.

قلت: بلاش. لكنها أخذت تبوسنى فى خدى وكانت المياة تملأ الأرض فملأ الطين هدومى، وأخذت هى تفك أزرار بنطلونى.

قلت: لو جت العفاريت دلوقتى هيقلبونا حمير أو أرانب ومش هانعرف نرجع بنى آدميين تانى.

قالت: يّلا بوسنى. فقبلتها، وأخذت تحك فخذيها برجلى وكانت تصرخ.

مالك يا زقلط. لم تتكلم، واتسعت عيناها ولمعتا ثم اغمضتهما فجأة وتنهدت. حين قامت من فوقى قالت: أوعى تقول لحد على اللى حصل هنا، وإلا هاضربك. ثم إنها أعطتنى قرشًا وقبلتنى. وكان الطين يملأ هدومى ويدى فقالت: قول لأمك أنك وقعت، وأنا هاغسلها لك.

دخلنا البيت، ورأيت أختى تجلس جنب عريسها، وأخذت اتسحب على السلم فلم يرنى أحد. غيرت هدومى ووقفت بجانب أختى التى كانت تضحك. وكان عريسها يوشوشها فى أذنها، زقلط كانت تقف جنب أختى فقرصتها فى ركبتها وضحكت. قالت أختى: إن شاء الله تحصلينى وتلاقى ابن الحلال يا زقلط يا رب. ردت زقلط: أنا أكبر منك بعشر سنين.

يا حـول الله، البنت فـاتهـا القطر وهاتتـجنن على الجـواز. همـست خالتى أم سعيد، وكنت أقف بجانب زقلط فقلت: أنا هاتجوزك يا زقلط، ما تخافيش.

ونظرت إلىّ وقالت: ياريتك كبير شوية.

فقلت أننى كبيراً جداً وأننى ألعب معها عريس وعروسة، وسوف أتزوجهـا لأن أحداً لم يتـزوجهـا. ووقـفت زعلانة فـقلت: يّلا بينا نلعب عريس وعروسة .فنظرت إلى بجانب عينها الشمال، ووضعت أصبعها الطويل على فمها وهمست: اسكت. فسكت، وقالت: اخرج استنانى بره. فخرجت، وكانت أختى، تضحك، وعريسها يوشوشها، وأمى تضحك وتزغرد، وأبى يضحك، وكان الجميع يضحكون، والبنت فردوس تغنى وهى تصفق بيديها: البنت حبت الجزار، والجزار حبها، ساب الجزارة وراح لها، وضربها بحق السالمون.

وجاءت زقلط وامسكت يدى، واتجهنا إلى شارع عشرة، وكانت الأرض مروية، والزرع طالعاً كبيراً جداً، والدنيا كحل، ولم نكن نبحث عن ضفادع.

* * *

٩

الحرب كانت قائمة .

وجاءنى سعيد فرجانى صاحبى وقال لى: هل سمعت بما حدث يا جيمى.

قلت: لا لم أسمع بما حدث يا سعيد. فابتسم بسمة رضاء عن نفسه لإحساسه بأنه عليم ببواطن الأمور، وأردت أفوت عليه هذه الفرصة فقلت: أقولك، لا أريد أن أعرف. فاغتاظ ونظر إلىّ بغيظ وقال: أنت حر. وهز كتفيه: اصلك لو عرفت لن تصدق. قلت: ولا يهمنى. ويبدو أن سعيداً شعر بنيتى فى تجاهله فقال لى: لن أقول لك، وأخذ يحدث

نفسه وقد تجاهلنى تماماً: أنا شخصياً لم أصدق حين سمعت الخبر، ولكن رأيت بعينى فصدقت ولم تسعنى الدنيا من الفرحة. ولأن سعيداً كان لابد له أن يقول لى، ولأنى كنت أريد معرفة ما حدث بأية طريقة. فقد قلت أستفزه: إيه يعنى، القيامة قامت. المسألة ببساطة، عملوا سينما فى بولاق. قال ونظر إلىّ وهو يعلم أنى حين أسمع منه هذا الكلام أنط من الفرحة، لكنى لم أفعل، وإمعاناً فى غيظه قلت: ناقص تقول لى نقلوا سينما سمارة وسينما مرمر فى بولاق، أنت عبيط يا وله.

ولم يكن سعيد هو العبيط، فقد رأينا بولاق الدكرور كلها تلتم فى المساء فى فناء مدرسة جمال عبدالناصر، وعلى حائط المبنى الأبيض شاهدنا فيلم فلسطين الثائر بطولة غسان مطر، وما أن انتهى الفيلم حتى خرجنا من المدرسة نهتف خللى السلاح صاحى.. صاحى.. لو نامت الدنيا صحيت مع سلاحى. وعرفنا أن السينما سوف تجىء إلينا يوم الخميس من كل أسبوع.

وجاءنى سعيد وقال لى: تشاركنى يا چيمى.

فقلت له: أشاركك فى ماذا يا صاحبى.

رد سعيد والتمعت عيناه: مثلما رأيت اليوم، بولاق الدكرور كلها كانت تتفرج على السينما، وأنا وأنت فى أجازة من المدرسة، يعنى لا شغله ولا مشغلة، وقعدة الفرجة تحتاج إلى شىء تتسلى به الناس، يعنى لو اشترينا «لب» وعبأناه فى قراطيس ووزعناه على الناس وهى تتفرج فسوف نكسب كثيراً كان سعيد صاحبى من النوع الحرك، وكان يعرف

من أين يأتى بالنقود، ولكنى أبديت له مخاوفى، وأننا قد نشترى اللب ونقرطسه، وفى النهاية يقع فى أرا بيزنا ونخسر الجلد والقسط. هز سعيد رأسه وخبط على صدره بكف يده وقال: طاوعنى ولن تخسر، على ضمانتى.

اشترينا كيلو لب سورى قبل موعد السينما بيومين، وجمعنا كراسات الواجب وأخذنا فى تقطيعها وعمل قراطيس متساوية عبأناها باللب ورصصناها فى صندوقين كبيرين، وقسمنا العمل بيننا بالتساوى، أنا أوزع صندوقاً وهو يوزع الآخر، وفى النهاية نجمع الغلة كما يقول سعيد ونقسمها بالتساوى ويا دار ما دخلك شر، ولأن سعيد ابن سوق ومتودك فقد أمطرنى بنصائحه الغالية، مرّ يا جيمى بين صفوف الناس وهى قاعدة وارمى قرطاس اللب فى حجر كل واحد ولا تأخذ منه شيئاً حتى تنتهى من توزيع القراطيس كلها، ساعتها، ترجع تلم الفلوس وأنت مطمئن، لأنهم سوف يفتحون القراطيس دون أن ينتبهوا وهم يتفرجون.

وجاء يوم الخميس الذى كنا ننتظره أنا وشريكى، كنت قد خبأت صندوق اللب فوق السطوح حتى لا يراه أحد فيفضحنى، وفى الصباح، فتحنا عيوننا على نبأ استشهاد الفريق عبدالمنعم رياض على الجبهة، كان بين جنوده يتفقد أحوالهم حين فاجأه ملك الموت، وانقلبت بولاق الدكرور كلها عياط على الشهيد، وظهرت صورته فى أيدى الباعة بملابسه الرسمية، كانت الصورة الصغيرة تباع بتعريفة، أما الكبيرة فبقرش، فاجأنا إحساس باليأس أنا وسعيد، فلو ألغيت السينما فى المساء حداداً على روح الفقيد فسوف تبور تجارتنا ونجلس نحن نقزقز اللب الذى طفحنا الدم فى جمع فلوسه وشرائه.

ربنا يستر . قال سعيد، وجلسنا ننتظر حلول المساء ونرقب ما سوف يحدث، وبين فترة وأخرى نحوم حول المدرسة التى سوف تقام فيها السينما نستطلع الأخبار، كان كل شيء يبدو هادئاً ولم ترد أنباء عن إلغاء سينما يوم الخميس، كذلك لم ترد أنباء بتأكيد إقامة السينما. أخذ النهار يختفى ببطء شديد، بينما أنا وصاحبى جالسان نضع أيدينا على خدودنا وأمامنا صندوقان ملآنان بقراطيس اللب لا ندرى ماذا نفعل بهما، قال سعيد: على فكرة، ممكن نسرح به فى الشوارع أو فى الجنينة.

هززت كتفى ولم أوافق على فكرته واقترحت عليه أن يشترى نصيبى بأى ثمن يريده هو فلم يوافق أيضاً، وبينما نحن جالسان هكذا نندب حظنا ولا نعرف كيف نخرج من ورطتنا، إذا بالميكروفون يذيع النبأ. بعد دقائق، ستبدأ سينما مدرسة جمال عبدالناصر عرض فيلم ٣٦ ساعة فى الجحيم. انتترنا واقفين، ومن الفرحة احتضنا بعضنا غير مصدقين أن المعجزة حدثت. حمل سعيد الصدوقين حتى ناصية الشارع حتى لا ترانى أمى أو أبى وأنا أحمل صندوقى، ثم تسلمته منه واتجهنا رأسًا إلى المدرسة. كان الزحام شديداًعلى باب المدرسة فانتظرنا حتى دخل آخر واحد ودخلنا، كان الجميع يجلسون فى فناء المدرسة على الأرض الرملية، وكانت آلة السينما موضوعة على ترييزة عالية وسط الناس، وأمامها، يقع الحائط الذى يستخدم شاشة للعرض، انطفأت الأضواء فجأة وظهرت حزمة الضوء القوية على الحائط فافترشته، ثم إنها أخذت تميل وترتفع وتنخفض حتى استقرت، ثم بدأ

البكر يدور، رأينا فرقة رضا ترقص وتغنى فدادين خمسة، خمس فدادين، لحظتها، صفر سعيد بفمه وكانت تلك العلامة المتفق عليها لنبدأ عملنا، أخذنا الصفوف من أولها، أنا من ناحية، وهو من ناحية، بدأت أخرج القراطيس من الصندوق الذى أحتضنه بذراعى وأرمى بها على الزبائن، وما كدت أنتهى حتى بدأ عرض فيلم عن ڤيتنام فأخذت أنظر إلى المرأة التى تضع طفلها على كتفها، وبيدها الأخرى تحمل بندقية تصوبها إلى طائرة تحوم فوق رأسها.

صفق الجمهور للمرأة التى اصطادت طائرة بيد واحدة.

كان سعيد يقف فى الجهة المقابلة ممسكاً بالصندوق الفارغ بعد أن وزّع كل ما كان معه من لب، وكنت أنتظر خطوته التالية لأعمل مثلما يعمل، ولابد أنه كان يرقبنى هو أيضاً، فقد وقف ساكناً، وبدا مستغرقاً فى الفيلم الأجنبى الذى بدأ لتوه، وكانت هذه خطته كما سوف أعلم بعد ذلك، فقد أطمأننت إلى أن الأمور تسير على ما يرام فبدأت أتفرج أنا أيضاً وبدأ الفيلم يشدنى حتى إننى نسيت نفسى وكل من حولى، ولم أنتبه إلا والنور يضاء بعد أنتهاء الفيلم والناس يخرجون، وقفت لا أعرف ماذا أفعل، بحثت عن سعيد فرأيته يحاسب أحدهم، ثم إنه نظر من وراء كتفه فلمحنى أنظر إليه، أشار لى وأخذ يضحك وقال لى بالصوت العالى: شربتها يا حلو. ثم وضع يده على جيبه واختفى من أمامى.

* * *

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩٥٥٣٩/١٩٩٩

I.S.B.N 977 - 01 - 6118 - 7